صراع الحضارات وجدلية الأنا والآخر في رواية "القاهرة الصغيرة" لـ "عمارة لخوص"

فريــدة دريــدي
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخّص:

تهدف هذه الدراسة الأدبية التطبيقية إلى معالجة إشكالية صراع الحضارات في رواية القاهرة الصغيرة للروائي الجزائري عمارة لخوص، الذي أعطى لتيمة الصراع الحضاري القائم على ثنائيات ضدية تشرح واقع العلاقة المضطربة بين الأوربي والعربي وبالتحديد الإفريقي، انطلاقا من معالجة موضوع الهجرة، الذي يعكس طبيعة الصراع، كما تهدف الدراسة إلى توضيح إمكانية أن تحول الصراع الحضاري في الرواية إلى حوار ثقافي مبني على الأخذ والعطاء ويدعو إلى التسامح المصالحة بين الأنا والآخر.

الكلمات المفاتيح: صراع الحضارات- حوار الحضارات- الأنا- الآخر الأوربي- الإفريقي- الهجرة.

Résumé:

Cette étude littéraire vise à traiter la problématique du choc des civilisations dans le roman "du Petit Caire" du romancier Algérien" Amara Lakhous", reliant le thème du conflit à la dialectique du Moi et l'Autre, comme binaires antithétiques expliquant la réalité de la relation trouble entre l'Européen et l'Arabe et en particulier celui d'Afrique, à commencer par le traitement de la question de l'immigration qui reflète la nature du conflit. Cette étude vise aussi à clarifier la possibilité de la transformation du conflit culturel dans le roman en un dialogue culturel fondé sur l'échange et l'interaction, et appelle à la tolérance et à la réconciliation entre le Moi et l'Autre.

Les mots clé: choc des civilisations - Dialogue des civilisations - Le Moi - l'Autre - l'Européen –Africain - l'immigration.

Summary:

The aim of this applied literature study is to study the problems of conflict of civilizations in the Cairo Algerian novelist "Amara Lakhous's novel "Small Cairo" and to link civilizations conflict with the conflict of the "ego and the other" as contradicted dualities in order to explain the reality of troubled relationships between European and Arab particularly African Arab and through addressing the issue of immigration which reflects the nature of the

conflict. The study also aims at clarifying the possibility of turning the cultural conflict in the novel into cultural dialogue based on "give and take" tolerance and reconciliation between the ego and the other.

Key words: the conflict of civilization- the dialogue of civilization -The ego - the other – European - African – immigration .

المقدمة:

يعتبر موضوع صراع الحضارات من أبرز القضايا التي اهتم بها النقاد والمبدعون في الآونة الأخيرة، وذلك لعلاقة هذه الإشكالية بإشكالية الأنا والآخر وصراع الهويات وإشكالية المثاقفة، التي تعتبر قناة مهمة للتواصل بين الحضارات، وذلك لإحداث نوع من التعايش والانفتاح على ثقافات الآخر، وقد تناول الكثير من الروائيين الجزائريين إشكالية صراع الحضارات مع اختلاف طريقة طرحها ومعالجتها باختلاف وجهات النظر وعلاقات كل كاتب، وظروفه الخاصة، ومن أبرز الروائيين الجزائريين الذين تناولوا هذه الإشكالية بوجهة نظر موسعة، تنمّ عن بعد مرجعي واقعي شخصي، ومعاش نجد الروائي الجزائري المغترب في إيطاليا **عمارة لخوص**، حيث انطلقت معظم رواياته من فكرة صراع الحضارات، وإشكالية علاقة الأنا والآخر، وتعد رواية **القاهرة الصغيرة** من أبرز رواياته التي تناولت هذه القضايا، ولهذا اخترناها مصدرا لدراسة إشكالية صراع الحضارات، محاولين تبيان أشكال الصراع الحضاري في وأبعاده، إضافة إلى إمكانية تحول هذا الصراع إلى حوار ثقافات وتصالح مع الآخر، أم أن هذا الصراع يبقى مستمرا لظروف معينة؟ وهل تعتبر الهجرة إلى بلاد الآخر تبنيا لهوية هذا الآخر وتخليا عن الهوية الوطنية؟ أم يظل المهاجر في صراع مع ذاته ومع الآخر لتحديد هوية هجينة لا تعترف بالذات ولا تلغي الآخر؟

1/ الإطار المفاهيمي:

أ/ مفهوم الأنا: ينبني مفهوم الأنا على التبعية والهيمنة، ويمثل الأنا الذات العربية والإفريقية مقابل الآخر المستبد الذي يفرض مقولة مفادها أنه لا وجود للأنا دون الآخر كمفهوم استراتيجي إمبريالي، وهنا يتحدد موقع الآخر ودلالته ووظيفته، ويرتبط مفهوم الأنا بمفهوم الهوية وعلاقته بثنائية الشرق والغرب، ولذلك صورت الرواية الأنا كمفهوم يرتبط بصورة الآخر الحضاري، باعتبار أن: ‹‹صورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر، كما أن صورة الآخر تعكس بمعنى ما صورة الذات››[1].

ولم يرتبط الأنا بالآخر إلا من خلال اعتراف الأنا بأهمية الآخر، إذ لا تعرف الأنا بمعزل عن هذا الآخر: ‹‹فالآخر يدخل عنصرا مقوما في صميم وجود الأنا، وماهيتها والأنا بذلك لا تكون إلا من خلال توقفها على الآخر، واستقلالها عنه في وقت واحد››[2].

ب/ مفهوم الآخر: يعرف عبد الرحمن بدوي الآخر من خلال الإقرار بوجود أنا مختلفة ومناقضة للآخر الذي يكون هويته بمعزل عن الآخر فيقول: ‹‹الآخر صفة كل ما هو غير أنا، وفكرة الآخر بمعنى غير الأنا مقولة ابستمولوجية ملخصها الإقرار بوجود خارج الذات العارفة أي كينونات موضوعية››[3].

ارتبط الآخر في بعده المفاهيمي بذلك الطرف المهيمن والمستبد؛ وهو الآخر الأوربي المستعمر بكسر الميم، أي بالحضارة الأوربية الغربية الذي نفهم دلالته من السياق، ويمكن أن يتحدد هذا الآخر: ‹‹باعتباره البعد السياسي أو الجغرافي، أو الاقتصادي، وهو قد يكون أوربا أو الدولة المتقدمة عموما، أو الآخر المختلف دينيا، أو حضاريا، أو هو كل هذا معا، فالخلط شائع ولم

يقع تحديد الحقول الدلالية لهذا المصطلح، وإنما وقع التعامل مع الغرب باعتباره مسلمة لا تثير السؤال، وهو عادة نقيض للعرب ومقابل له››[4].

ج/ مفهوم صراع الحضارات: يعرف بصدام الحضارات، ويتحدد مفهوم الصراع الحضاري في الكثير من الأحيان بصراع الأفكار والمعتقدات، وصراع الثقافات بين الشرق والغرب، وتعد بؤرة الصراع هي عقدة الكره والحقد للإسلام والمسلمين ومعادتهم وهذا ما أدى إلى تعميق الهوة بين الشرق والغرب.

عدت إشكالية الصراع الحضاري في الرواية أهم تيمة تطرحها الرواية، كما يشير هذا المصطلح إلى الاختلافات السياسية والاقتصادية؛ حيث أفرزت هذه القضية عدة عوامل أبرزها العوامل السياسية، والعسكرية، وانهيار الاتحاد السوفياتي ومحاولة الـــ "و.م.أ" فرض هيمنتها على العالم، كل هذه الأحداث تزامنت مع محاولة الليبرالية الجديدة المتطرفة استغلال ظاهرة العولمة لفرض إديولوجياتها، وتكريس مبدأ الهيمنة والمركزية.

د/ حوار الحضارات: يحيل هذا المصطلح إلى معنى التسامح الحوار والقدرة على التكيف، والتفاعل، والتواصل الإيجابي بين الشعوب، مهما اختلفت وتباينت توجهاتها الدينية والفكرية والثقافية، ويشير **عبد الرزاق الداوي** إلى أن الحوار بين الثقافات يتوجب توفر أخلاقيات في جميع ‹‹المبادرات الرامية إلى إنعاشه وتفعيله وجعله مثمرا، فلكي يرسى على أسس سليمة، ينبغي أن يقوم على مبادئ أساسية لعل أهمها: التسامح، والاعتراف بحق الاختلاف الثقافي، وممارسة النقد والنقد الذاتي››[5].

2/ مضمون رواية القاهرة الصغيرة وعلاقة العنوان بفضاء النص:

تدور أحداث الرواية حول **كريستان** الإيطالي بين المهاجرين العرب والمسلمين في حي ماركوني بروما لكشف عملية إرهابية مرتقبة وصل صداها إلى الاستخبارات الإيطالية. وقد وقع الاختيار عليه لكفاءته اللغوية وقدرته على التحدث باللهجة التونسية بطلاقة. يبدأ **كريستيان** مهمته السرية بعد أن يتقمص شخصية **عيسى التونسي**، ويتحول إلى شاب بشارب بارز يعمل غسالا للصحون، ويقيم في بيت جماعي لا يملك فيه سوى الفراش الذي ينام فيه. يتقاطع مصيره مع مصير **صوفيا** الشابة المصرية المحجبة التي تعيش مرحلة عصيبة في حياتها، إذ تضع ثقافتها العربية الإسلامية تحت مجهر تجربتها مع البيئة الجديدة المختلفة لغويا ودينيا وثقافيا.

تعدّ رواية القاهرة الصغيرة مسرحا أو كوميديا على الطريقة الإيطالية كما يقول الروائي– لأحداث ووقائع تتداخل فيها العديد من المتناقضات: الانفتاح والانغلاق، الجد والهزل، المعقول والعبثي، الأمل واليأس، الحب والخوف. ولذلك ارتبطت هذه الثنائيات بالفضاء الجغرافي للرواية حيث تدور أحداثها في حي من الأحياء الإيطالية الذي يعتبر استنساخا لبيئة عربية موبوءة بأفكار ورؤى متعددة ومتناقضة تختزل العلاقة العدائية بين الشرق والغرب، ليختزل عنوان الرواية **القاهرة الصغيرة**، أحداث في غير بيئتها الحقيقية، بل هي بيئة إيطالية التضاريس والانتماء الجغرافي، لكن شخوصها عرب ومسلمين في عاداتهم وأساليب معيشتهم فمعظمهم مصري الجنسية إضافة إلى شخصيات جزائرية وأخرى تونسية يتقاسمون غرفة واحدة في حي ماركوني، ولهم علاقات متعددة مع الآخر الإيطالي، يتوسلون من خلال هذه العلاقات معيشة أفضل داخل مجتمع يعدهم بمستقبل أفضل.

3/أشكال الصراع الحضاري في الرواية:

أ/الصراع الديني والعقائدي: تعتبر الثقافة أبرز عوامل الصراع الحضاري ذلك أن كل فرد يحاول التمسك بثقافته من خلال إشاعتها والترويج لها وذلك عن طريق مقارنتها مع باقي الثقافات بغرض الهيمنة لكونه يرى في ثقافته مثالا للتقدم ورمزا للعلو والهيمنة، وما دونها فهو دوني لا قيمة له، وهذا ما تعانيه الثقافة العربية والإسلامية بالنسبة للثقافة الغربية، ولذلك أصبح العرب يرون في الثقافة الغربية مركز القوة و دليل التحضر وهذا ما جعلهم ينسجمون معها حد التماهي ويستعيرون منها أفكار وعادات دخيلة عن المجتمع العربي يرون فيها تميزا ورقيا حضاريا، وهذا يصنف فيما اصطلح عليه بالمثاقفة التي اتّخذت مفهوما استعماريا، يرسخ فكرة المركزية الأوربية، ولذلك عدت المثاقفة شكلا من أشكال الصراع بين الحضارات، هذه الأخيرة التي تحاول تشويه الثقافة العربية من خلال اتهاماتها التي تستمد جدورها ومشروعيتها من عداء تاريخي قديم وخوف هستيري اتجاه كل من هو مسلم فالإسلام بالنسبة لهؤلاء مصدر للقسوة والظلم والإجحاف في حق الآخرين بل هو عنوان لكل الشرور وهذا ما تصوره رواية **القاهرة الصغيرة** على لسان **صوفيا** تعرض موقف الرأي العام الإيطالي من الإسلام والمسلمين: «إن الشر متجذر في الإسلام وقد أنتج العنف والصراعات على مر القرون، الطامة الكبرى هي أن المسلمين لا يعرفون معنى الحب»[6].

هذه هي صورة الإسلام عند الأوربيين، إنها صورة للعنف والظلم حيث جرد المسلم من كل إنسانية ووصف بالتخلف والبداوة والهمجية، وتعد شخصية **صوفيا** المهاجرة المصرية في إيطاليا مثالا حيا على الإنسان العربي السلبي المقصي لذاته و هويته العربية الإسلامية، بمجاراتها لموقف الغرب

من الإسلام ومن الشخصية العربية المسلمة حيث تقول: «رحت أكرر في ذهني هذه الجملة "الطامة الكبرى هي أن المسلمين لا يعرفون معنى الحب هذا حكم في منتهى الخطورة ولا يقبل الاستئناف ومعناه أننا حيوانات وهمج لا نمت للإنسانية بصلة، لذلك ليس لنا الحق في الوجود»[7].

قدم الراوي على لسان شخصية **صوفيا** رؤية حيادية، تكرس فكرة الانسلاخ عن الهوية والتخلي عن معالم الذات الجماعية وتقبل إقصاء الآخر لها، إنها تحكم على هذا الموقف بأنه موقف نهائي لا يقبل الاستئناف، وهنا تطرح الرواية جدلية الأنا والآخر المبنية على عنصري الإقصاء والتهميش، باعتبار الأنا هامشا، والآخر يمثل مركزا للهيمنة؛ ولذلك تتبنى **صوفيا** مقولة إنسانية الغرب المسيحي ولا إنسانية العربي المسلم، وهذه بؤرة الصراع الثقافي والعقائدي بين القطبين.

ب/ صراع الأنا والآخر في ظل العولمة: ظلت إشكالية الأنا والآخر من أهم الأفكار التي شغلت المفكرون والمثقفون العرب، فاختلفت الآراء حول طبيعة هذه العلاقة هل هي علاقة صراع أم حوار، وتجمع أبحاث المفكرين بأن العلاقة بين الذات والآخر انتقلت من الصراع والإقصاء إلى الحوار وتقبل الآخر، ويعود هذا إلى العلاقة التاريخية بين الأنا والآخر المبنية على الاستعمار، والاضطهاد، والتبعية، ولكن الصراع في حد ذاته يولد نوعا من الحوار المبني على ضرورة معرفة الآخر بسلبياته وإيجابياته، ولكن بوجود فعل إنساني لاإرادي يجعلنا نحتك بالآخر دون النظر إلى العلاقة التاريخية السوداء (الاستعمار) لأن وعي الإنسان: «لا يتشكل بصورة حقيقية إلا حين يبدأ بوعي علاقته بالآخر الذي يعد نقيضا ومكملا، في الوقت نفسه للأنا»[8]، ولكن نجد الأنا في الكثير من المواقف تعترف بعدالة الآخر وتبنيها

له ولعل هذا ما جاء على لسان إحدى شخصيات الرواية حيث تتبنى هذه الشخصية الموقف الإيجابي من الآخر فتشرح لنا اعتراف الآخر الإيطالي بحقوق المهاجرين القانونيين في إيطاليا من خلال شرح مادتي الدستور اللتان تقران بحقوقه: «لكل المواطنين نفس القدر من الكرامة الاجتماعية، وهم سواسية أمام القانون دون تمييز في الجنس، أو العرق، أو اللغة، أو الدين، أو الأفكار السياسية، أو الأوضاع الشخصية، والاجتماعية (...) للجميع حق ممارسة معتقداتهم الدينية بحرية وبأي شكل»[9].

ولذلك فالحوار بين الأنا والآخر تحكمه عوامل مختلفة ومتشعبة تجعل كلا منهما في مواجهة الآخر، فالأنا دائما تبقى متمسكة بخصوصيتها الثقافية، رغم التصادمات التي يطرحها الواقع الإنساني الذي سادته هيمنة ثقافة على أخرى، وتحدي قطب للآخر، وهذا ما أبعد الحضارة العربية الإسلامية عن هويتها، فأصبحت معرضة لإمكانية الانسلاخ عن الهوية الذاتية والذوبان في الثقافة الأوربية المركزية السائدة في عصر العولمة والليبرالية، ولهذا يأخذ الصراع بعدا آخر يبتعد عن المستوى الاجتماعي، ليؤول إلى صراع كامن في اللاوعي الداخلي، أين يحس الفرد ذاته منقسمة بين الأخذ بمبدأ التمسك بثقافته، أو التبعية لثقافة الآخر الأوربي، وهنا برز خطابا ثقافيا أقر بمشروعية الهيمنة ومركزية الحوار، وتقويض ثقافة الهامش ومركزية الذات الأوربية بثقافاتها المختلفة، وهنا تركزت فكرة الهيمنة للأوربي والتبعية للأنا، ولكن العلاقة بين الذات والآخر أخذت بعدا آخر وهو فكرة التعايش والحوار والتواصل الحضاري ونفي فكرة التبعية والصراع والهيمنة.

إلا أن المثقف العربي ظل –عندما اكتشف حقيقة ذاته بالنسبة للآخر– في مرحلة تأزم فوقع في أزمة التلقي السلبي الاستهلاكي للقيم

الغربية، وبالتالي تجاوز الهوية الوطنية لبناء هوية بديلة هجينة بدعوى تحرير الفكر والانفتاح على ثقافة الآخر، وهنا تأزمت العقلية العربية فظهر النص الإبداعي الجديد؛ الذي نشأ من لذن الثقافة الغربية منحازا إليها على حساب ثقافته (الأنا) وهنا وقع حوارا ثقافيا وفنيا بين الأنا والآخر، فأصبح الاعتراف بهيمنة الآخر المتمثل في الأوربي فكرا وثقافة وإبداعا. وهنا وقع الفرد العربي المهاجر في إشكالية الانتماء: «لا هو إيطالي ولا هو مصري قصة جلال تشبه آلاف القصص لأبناء المهاجرين في إيطاليا، أو الوافدين إليها في طور الطفولة، قرأت في إحدى الصحف الوطنية أن أكثر من نصف منهم ينتظرون الجنسية الإيطالية، ففي نظر القانون هم أجانب»[10].

ولهذا تطرح الرواية أزمة الهوية بالنسبة للمهاجر الذي تخلى عن هويته العربية ليتبنى هوية الآخر، فلم يجد مكانا له أمام تلك المتغيرات والاختلافات العرقية، وتعد قصة **جلال** ابن **حنفي** التونسي مثالا على ذلك فليستطيع أن يقول أنه عربي مصري أو جزائري أو تونسي.....ولا يستطيع أن يكون أجنبيا إيطاليا لأن القانون الإيطالي لا يتبناه.

اتجهت طبيعة علاقة الأنا والآخر بالمثاقفة والعولمة والدعوة إلى الحوار الحضاري، وذلك لاستفادة الشعوب من بعضها البعض من خلال الإيمان بتعددية الأقطاب والتكافؤ والفهم الصحيح للأطراف المتحاورة، ولذلك كان على الواقع الدولي أن يجسد في كل مرحلة إيديولوجيا الحوار على أنه: «سلسلة من التفاعلات والتمازجات بين حضارات مختلفة تقوم على الرؤية المشتركة والعمل المشترك»[11].

ارتبطت الرواية بالرمز انطلاقا مما تطرحه من مواقف بأبعاد نصية ودلالات لفضية رمزية، فيها من الإشارة والإيحاء ما يجعل النص في حوار

داخلي بين بنياته السردية التي تنتقد الواقع بأساليب: « تتجاوز دلالاتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصورات فكرية وتسميتها في إطار معين، تقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة»[12].

نتج هذا الصراع وعدم تقبل الأوربي للإفريقي عن ذاكرة تاريخية تدين الأفارقة، وتحملهم مسؤولية وتبعات أي جريمة، أو تمرد حصل في الأراضي الأوربية، ولذلك كان كل مهاجر في حي ماركوني مشتبها به في قضايا الإرهاب والقتل، فكل تصرف مهما كان بسيطا هم مسؤولون عنه، ولذلك يعبر **النقيب جودا** المسؤول في الاستخبارات الإيطالية عن امتعاضه من تصرفات العرب المسلمين واتهامهم بالفساد وإدانتهم بكل الجرائم في الحي فيقول: ‹‹لدينا أطنان من الأدلة للقبض عليهم جميعا. خلال السنوات الأخيرة أعتقل في إيطاليا الكثير من المهاجرين المسلمين بتهمة الإرهاب، ولم تكن ثمة أدلة وإنما شبهات. أين المشكلة؟ نحن متأكدون أنهم إرهابيو ماركوني››[13]، وهنا ارتبط الصراع بأبعاد ذات صلة بدعوى التعصب، والقمع، والتطرف السياسي، والديني، والعقائدي لتجعل من المهاجر العربي والإفريقي في موضع شك، يثير تساؤلات عدة ذات أبعاد سلبية.

ارتكزت إشكالية الأنا والآخر على رسم حدود العلاقة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة باعتبارها علاقة هيمنة وتبعية، مبنية في سياقها التاريخي على فكرة الاستعمار التي تجسد ثنائية (الغالب والمغلوب)، ولذلك بقيت الأنا تتوسل في الآخر قوتها من خلال ما جسدته هذه الأنا من قابلية للاستعمار، فرغم خروج الاستعمار من ديارها إلا أنه بقي متجذرا في كيانها الثقافي، ومن هنا اقتنعت بتبعيتها اللاإرادية للآخر، وظل المستعمر الأوربي

يرى في القارة الإفريقية مطمعا كبيرا يستطيع أن يحقق طموحاته الاستغلالية، وكأن الفكر الاستعماري مازال مستحوذا على عقول الأوربيين الذين اعتبروا القارة الإفريقية قارة مظلمة وفقيرة وجاهلة، لم يخرجها من ظلامها وجهلها وبربريتها سوى المستعمر الأوربي، الذي كان ولا زال له الحق في الشعور بالانتماء إلى قارة هو من جعلها تسمو نحو الإنسانية، ويعتبر هذا شكلا من أشكال الاستعمار الفكري الجديد، كما يعد من أبرز مبادئ الامبريالية والعولمة: «فبقدر ما يدعو إلى الاعتراف بالطابع الكوني لمفاهيم من بنات ثقافته وحداثته، مثل الحرية والمساواة والديمقراطية وحقوق الإنسان، يسجن نفسه في خصوصيات هويته الثقافية الضيقة أو يتمادى في إقصاء ثقافة الآخرين وتهميشها، إلى حد يبدو فيه أن هوية الغرب بصفة عامة مسكونة بعقدة التفوق والاستعلاء على مستواها من الهويات الثقافية الأخرى»[14]، وأمام كل هذه المغريات والشعور بالنرجسية والاستعلاء مقابل مستوى التدني والتراجع بالنسبة للثقافة العربية والإفريقية؛ الذي ظل المجتمع الغربي يهمشها، وينظر إليها من زوايا ضيقة لا ترى في العربي والإفريقي المسلم سوى عدوا لثقافاتها؛ وتعد شخصية **الجد جوفاني** مثالا على ذلك فنجد في تعليقاته إدانة وإقصاء للعربي المسلم: ‹‹ماذا تنتظر الحكومة لإغلاق المساجد وزج المصلين المسلمين الإرهابيين في السجون؟ إذا أراد المهاجرون المسلمون الاندماج في مجتمعنا، فعليهم أن يعتنقوا المسيحية››[15]، وبالتالي ظلت نظرة المجتمع الغربي السلبية لهذه القارة مترسخة في الوعي الجمعي، رغم ما تقدمه الحضارة العربية والإفريقية من إسهامات لأجل إرساء القيم الإنسانية والحضارية ولذلك بقي: «الغرب المتقدم يبدو وكأنه عاجز عن الاعتراف بالثقافات المغايرة، إذا لم تعكس له صورته النرجسية»[16]، إلا أن الفرد الافريقي بقي متمسكا بهويته اللغوية والدينية، رغم

التصادمات التي طرأت على حياته بعد خروج الاستعمار الذي حاول تدمير الشخصية الإفريقية بشتى الأساليب والطرق.

وصف الروائي الجزائري **عمارة لخوص** في معظم رواياته رحلاته إلى أوربا عن طريق سرد روائي مادته الكلمة الإيحائية التي توحي بوجود علاقة وطيدة بين لاشعور الكاتب والواقع الاجتماعي والاقتصادي المفترض، والذي يحلم الكاتب أن يعيشه داخل وطنه، إنها الحاجة الماسة لتغيير واقع معاش، في ظل الظروف القاسية التي يعيشها المبدع داخل مجتمع مفكك، انعكست صورته على نفسية المبدع، فأبدع نصا يقوم على تحديد العلاقة النمطية بين الإنسان والعالم، كونها علاقة تعبر عن وعي الفرد بالنزاعات الأيديولوجية والسياسية داخل المجتمع الذي يعيشه، وبالتالي يعبر عن وعي جماعي تترجمه أفكار ومبادئ يعلنها الكاتب داخل نصه الروائي الذي يحاول: «عبره تفسير البنية الروائية –القائمة في التشكل الذي تتخذه العلاقات بين الإنسان والعالم داخل النص– بربطها بتيار فكري يمثل نمطا محددا من الوعي الجماعي، ويفسر هذا الوعي بدوره عبر تحديد موقعه بين الأنماط الأخرى من الوعي الجماعي التي تساهم في النزاعات الأيديولوجية المحتدمة داخل مجتمع معين»[17].

رصدت رواية القاهرة الصغيرة ملامح الحضارة الأوربية من خلال تصويرها لعلاقة الإنسان العربي والإفريقي بالحضارة الأوربية العريقة، هذه الحضارة الموغلة في القدم والتي لها جذورا عميقة في التاريخ الإنساني العالمي، ليمتزج التاريخ بالمتخيل السردي؛ الذي يشرح هذا الواقع التاريخي انطلاقا من مرجعيات واقعية تعيد من خلالها كتابة تاريخ الوقائع بأساليب رمزية تعتمد بدرجة قصوى على المتخيل، فينشأ نصا تفاعليا تتحاور فيه

أجزاؤه السردية لتعيد كتابة التاريخ وفقا لوجهة نظر مغايرة وهنا يمكن للرواية أن: «تستقبل موادا تاريخية لتشييد كيان سردي دالا فنيا، ويكون بإمكان التاريخ أن يستفيد مما يحتاجه من مواد روائية، ليشيد كيانا سرديا لا تاريخيا»[18].

تتناول رواية **القاهرة الصغيرة** ظاهرة الاغتراب بكل ما تحمله من حمولات فكرية، وثقافية، ونفسية، وما تكتنفه من غموض داخل النص الروائي مما يجعلها تدخل الشخصيات في جو من الصراع النفسي، والفكري، والإديولوجي، وهذا ما تعيشه ويشعر به المهاجر خارج وطنه، فالغربة ليست غربة المكان بل هي اغتراب للذات وتعلقها بأحلام كبيرة، أبعدها عن واقعها المفضل حيث جاء على لسان أحدهم قائلا: «أشعر أني غريب عن نفسي، الحق أنني غريب عن روما هذه المدينة لا أعرفها جيدا، زرتها مرات عديدة لكن كنت دائما في عجلة من أمري... معرفتي بروما سطحية، ولكن يحق لي أن أتفاخر بأني رأيت بأم عيني الكوليسيو وفونتانا دي تريفي وساحة نافونا وقبة كنيسة القديس بطرس وحديقة فيلا بورغيزي مثل ملايين من السياح في العالم أجمع... ينبغي أن أكف عن الشكوى، لأن الشعور بالغربة حاليا ليس عائقا بل حافزا لأداء الدور»[19].

تبدي شخصية **كريستيان** انبهارا تاما بالأمكنة التي زارها وتجول فيها، وذلك من خلال وصفها وكأنها فضاءات منقطعة النظير، وهذا ما جعله يبدي نوعا من الاستلاب الفكري والتعلق الفعلي بأوروبا الحلم، ليتولد عن هذا التمازج ما يعرف بالاغتراب الحضاري، والتمزق والتشرذم الثقافي بين عالمين مختلفين فكريا وإيديولوجيا، وهنا تنشأ فكرة اللاهوية بتبني الأنا لهوية الآخر الأوربي. ومن الطبيعي أن تتعمق أزمة البحث عن هذه الخصوصية،

نتيجة الجذب الحضاري العاصف، الذي ما فتئت تمارسه الحضارة الغربية المهيمنة وتمثل شخصية **صوفيا** وعائلتها مثالا على ذلك، حيث يتجاذبها التيار العربي الإسلامي والتيار الأوربي الغربي المسيحي، وتحاول إثبات هويتها الإيطالية من خلال معرفتها الجيدة للغة الإيطالية فتقول: ‹‹كثيرا ما يمدحني الإيطاليون لاتقاني لغتهم. تارة يحسبونني إيطالية اعتنقت الإسلام وتارة ولدت في إيطاليا من أسرة مهاجرة، أو وصلت إلى البلد في الصغر وتلقيت تعليمي في المدارس الإيطالية››[20].

وتتأزم عقدة الصراع بين الأنا والآخر في رواية **القاهرة الصغيرة** حين يصور الروائي طبيعة معيشة العرب والأفارقة في **حي ماركوني**، وعلاقاتهم المضطربة مع الأوربيين الذين يحملون في ذواتهم عقد كره وإقصاء للعربي عموما والمسلم على وجه الخصوص، وأولى علامات التمايز بين العربي والأوربي هي الاسم الذي يحيل دائما على مرجعيات الشخصية الثقافية والدينية والعرقية، ولذلك مهما حاولت أن تتنصل عن شخصيتك وهويتك فاسمك سيكشف انتمائك وستبقى في نظر الآخر غريبا لا يمكن ائتمانه ولذلك: «ليس مهما أن تكون إيطاليا لأن والديك ليسا إيطاليين وليس مهما أن تكون مولودا في إيطاليا، أو تكون إيطالي الجنسية، أو تجيد اللغة الإيطالية، أو... ياعزيزي محمد، في عيون الآخرين لن تكون إيطاليا مائة في المائة أبدا. إذن فالاسم هو العلامة الأولى على هويتنا»[21]، ولهذا تقمصت معظم شخصيات الرواية، شخصيتين مختلفتين في الانتماء لحضارتين متناقضتين.

ولهذا تطرح الرواية معاناة العرب المهاجرين من الظلم والهمجية والإقصاء والعنصرية بسبب انتماءاتهم، ولعل معاناتهم من العنصرية

والاحتقار من طرف الآخر هو ما جعلهم يتمسكون بهويتهم وإدراك قيمة الوطن والانتماء، خارج بيئتهم حيث تقول **صوفيا:** «هذه ليست المرة الأولى التي أتجرع فيها مرارة العنصرية بت أتعاطف مع حجابي بمرور الوقت، صحيح أنني لم أختره في البداية ولكنه صار رمز هويتي بل جلدي الثاني، يجب أن لا أكتفي بقبوله وإنما علي أن أدافع عنه»[22].

وتتجاوز تيمة العنصرية في الرواية لتكون بين الإيطاليين أنفسهم، وكأن الروائي بتعامله ومعاشرته للإيطاليين أصبح يعرف حتى نقاط ضعفهم فالعنصرية متجذرة في المجتمع الإيطالي؛ فالإيطاليون الذين يعيشون في الجنوب يعانون من العنصرية ويوصفون بالبداوة من طرف إيطاليو الشمال حيث يقول أحدهم داخل الرواية: «يا أخي العنصرية في إيطاليا منتشرة بين الإيطاليين أنفسهم أنا عشت في ميلانو ورأيت كيف يسيؤون معاملة الإيطاليين الوافدين من الجنوب»[23].

ولذلك يفتقر المهاجرون القانونيون للأمان، حيث أصبحوا مقيدو الحرية لأنهم مراقبون ومتهمون دائما كون فكرة الإرهاب أصبحت ترتبط بهم، ولكن رغم هذه الظروف القاسية مازال المهاجر متمسكا بقيمه وبحقوقه التي شرعها له القانون حيث تعبر **صوفيا** عن هذا بقولها: «ذهبت إلى سوق ماركوني أتمنى أن لا تجمعني مساوئ الصدف مع الوحش العنصري أرفض التنازل عن حريتي بسبب الخوف، لا أقبل التهديد والوعيد من أي شخص كان»[24].

وتركز الرواية على صورة الغرب، أو أوربا الحلم لكونه بلد الحريات، إلا أن الحقيقة تقول عكس ذلك؛ لكون أوربا أصبحت مرادفا للعنصرية والمعاناة والاحتقار ضد العرب والأفارقة، لذلك يخضع المهاجرين

لقوانين صارمة تقيد الحريات وتخنق الأنفاس: «نحن لا نعيش في جزيرة معزولة، وإنما في مجتمع يؤثر على خياراتنا ويحدد حريتنا، لذلك ينقسم سكان البيت إلى مهاجرين قانونيين ومهاجرين غير قانونيين»[25].

كما ارتبط المجتمع الغربي في الرواية بالغريزة والإغراء، لتختزل علاقة الأنا والآخر بعلاقة المرأة والرجل، تلك العلاقة المبنية على الشهوة، وتحقيق المتعة الجنسية، وتمثل شخصية **تيريزا** صاحبة المسكن الذي يأوي المهاجرين في **حي ماركوني** مثالا للمرأة الغربية، التي تريد تحقيق شهوتها على حساب المادة والاستغلال ونستشف هذا من خلال الحوار القائم بين **عيسى التونسي** أو **كريستيان الإيطالي** وشخصية **صبري المصري** حيث يقول: ‹‹إنها تحب قضاء ليالي الأنس والمتعة بصحبة شبان عرب فحول فقراء (...) شبان عرب وقعوا في شباك **السينيورة تيريزا**. وكل من يجاريها ويلبي رغبتها، ينال امتيازات مغرية كالإعفاء الكلي عن دفع الإيجار››[26].

وتحيل هذه العلاقة الحاصلة في **القاهرة الصغيرة** أو **حي ماركوني**، على مفارقة مفادها أن هذه العلاقة توحي بعلاقة عميقة وافتراضية، وهي علاقة أوربا الغربية التي تعد مركزا للإغراء بالنسبة للأنا العربي الإفريقي، الذي يرى في الآخر الأوربي تحقيقا لمصالحه، وتحسين مستوى معيشته ولو على حساب هويته ومبادئه، ولذلك تعج الرواية بمثل هذه العلاقات الغير شرعية والمشبوهة، وبالمقابل تعد في المجتمع الأوربي علاقات مباحة، ومشروعة. وهنا تكمن عقدة الصراع بين الحضارات، وتتأزم الأحداث ليتجلى الصراع بين شخصيات الرواية بين مؤيد ومعارض لقيم هذه الحضارة.

وخلاصة القول إن إشكالية الصراع الحضاري في الرواية أصبحت تطرح بالتفصيل في الرواية وبكلّ جرأة دون مراعاة لاعتبارات معينة، فلا حدود في انتقاد الآخر وتبيان وجهات النظر المختلفة له، وبالتالي تطرح رواية القاهرة الصغيرة هذه الإشكالية من خلال ربطها بإشكالية العلاقة بين الأنا والآخر هذه الإشكالية التي تحدد طبيعة هذه العلاقة و إمكانية الحوار مع الآخر أو التمسك بمقولة الصراع، أما في الرواية فقد اتخذ الصراع عدة أشكال انطلاقا من الصراع الديني والعقائدي، وهو مكمن الصراع عامة وبدايته الأساسية التي يسعى الآخر من خلاله إلى إقصاء الأنا العربية وعدم الاعتراف بها كليا، وكما ارتبطت إشكالية الأنا والآخر بظاهرة الهجرة التي تعد موضوع الرواية حيث تطرح معاناة المهاجر اليومية في أوربا، لتكشف عن صراع دائم يشوبه الخوف وانعدام الأمان بين الأنا والآخر.

ويمكن القول إن حي ماركوني الذي يحيل على القاهرة الصغيرة ما هو إلا اختصار جغرافي وفكري وسياسي للبلدان العربية، التي تعاني المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والعربية مقابل الدول الأوربية، التي أصبحت ترى في العرب فريستها لتمارس سلطتها عليها دون التفكير في عواقب الدمار وقمع الإنسانية فكريا بالدرجة الأولى.

اتّسمت البنية السردية للرواية بغلبة الحس الواقعي والانتقادي، حيث يشعر القارئ وكأنه يشارك الروائي في عرض أفكاره كون الرواية أشد ارتباطا بواقع العلاقات السياسية والثقافية المبنية على أساس الصراع السياسي والاقتصادي بين العرب والغرب، فمهما كانت مبادرة العربي لمصالحة الآخر والاعتراف بقدرته الثقافية وجبروته السياسي والعسكري ما

زال على الغربي أن يقدر ثقافة الآخر العربي ويعترف بقدرتها على بلوغ سلم التقدم والحضارة.

تطرح الرواية أفكارا سلبية عن الشخصية العربية الإسلامية التي هي الأخرى تتنكر لذاتها وتحاول إقصائها وتبني ثقافة الآخر وهنا تظهر فكرة انسلاخ الهويات، والتخلي عن الذات القومية الإسلامية ومحاولة إخفائها واستبدالها بما يحقق لها الحريات أكثر.

الهوامش:

[1]/ طاهر لبيب وآخرون: صورة الآخر، العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ص812.

[2]/ محمود رجب: المرآة والفلسفة، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، ع2، دط، 1981، ص7.

[3]/ عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، مادة آخر، المؤسسة العربية، مصر، ج1، ط1، 1984، ص13.

[4]/ الزهرة بلحاج: الغرب في فكر هشام شرابيي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2004، ص14.

[5]/ عبد الرزاق الداوي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات(حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة)، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، بيروت، ط1، 2003، ص95.

[6]/ عمارة لخوص: رواية القاهرة الصغيرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص89.

[7]/ الرواية: ص89.

[8]/ غسان السيد: صورة الغرب في الأدب العربي، مجلة جامعة دمشق، م24،ع4، 2008، ص88.

[9]/ الرواية: ص177.

[10]/ الرواية: ص170.

[11]/ حوار الحضارات: هيئة المعلومات للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، دط، 2002، ص53.

[12]/ أحمد بوحسن: مدخل إلى علم المصطلح، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد60-61، 1989، ص84.

[13]/الرواية: ص204

[14]/ عبد الرزاق الداوي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات(حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة)، ص107.

[15]/ الرواية:ص99.

[16]/المرجع نفسه:ص108.

[17]/ ليليان غصن سويدان: قراءات ثلاث لرواية "الغريب" لكامو ،مجلة الآداب،الكويت،ع1-3، 1990،ص35.

[18]/ عبد السلام قلمون: الرواية والتاريخ ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2010، ص102.

[19]/الرواية : ص 10.

[20]/الرواية: ص88.

[21]/الرواية: ص21.

[22]/ الرواية: ص55.

[23]/الرواية: ص146.

[24]/ الرواية: ص .163

[25]/الرواية: ص180.

[26]/الرواية: ص144.